كلمة البروفيسور جوزف أبو نهرا في كنيسة القدّيس يوحنا المعمدان ـ بيت شباب،
«المسيحيون في الدولة العثمانية بين نظام أهل الذمّة وسياسة الإبادة»،
الإثنين ١٠ حزيران ٢٠٢٤

شكرًا، أهلاً وسهلاً بالأوّل. رح إحكي بالدارج، ما رح أعطي محاضرة حتّى يكون الحديث من وحي المناسبة ومن القلب للقلب.
طلبت منّي الآنسة روزيت يمين أني إحكي عن إبادة المسيحيين. ما تحمّست كتير للموضوع، لأنّو لم يُبَد المسيحيون. نحنا كتار هون، وكلّنا مسيحيي. إذًا، المسيحيّون لم يُبادوا، ولا يُبادوا، ولن يُبادوا. لهالسبب طلبت منا أنّو نغيّر بالعنوان ونحكي عن وضع المسيحيين بالشرق أولاً، وبعدين وضعن كأهل ذمّة بالدولة العثمانية، ولو أنّو بآخر القرن التاسع عشر، ساوون مع المسلمين، بس بقيو ما عندن كلّ الحقوق تمام، ومننهي بالكلام عن سياسة الإبادة للسريان والأرمن والكلدان، ونحنا اللبنانيي بالمجاعة يللي صارت بالحرب الكبرى. في إذًا محطات تلاتي: أولاً المسيحيين بالشرق، تانيًا المسيحيي أهل ذمّة، وتالتًا سياسة الإبادة.

المسيحيين بالشرق

نحنا لازم نعرف ونتأكّد أنّو المسيحية شرقية، المسيحية نشأت بالشرق. في مسيحيين شرقيين، وفي مسيحيين غربيين، ولكن المسيحية شرقية. نشأت بفلسطين، نشأت بالشرق، وعلاقتا بالشرق كتير مأصّلة، لأنّو كلّ الأسس تبع العقيدة المسيحية وُضعت بالشرق، وبالرغم من المضايقات يللي تكبّدا المسيحيون من الرومان بالأوّل، وبعدين من الدول الإسلامية يللي تعاقبت عالمنطقة، وآخرن كان الدولة العثمانية.

فالمرحلة الأساس لتاريخ المسيحية جرت بالرقعة الجغرافية الممتدة من بلاد ما بين النهرين شرقًا حتّى مصر غربًا، وشمالاً حتّى القسطنطينية. بهالمنطقة هيدي، وبمجمع نيقيا يللي هي اليوم بالأناضول التركي، وُضع قانون الإيمان يللي هو اليوم أساس عقيدتنا. وُضع بالشرق، ما وُضع بروما. هي معلومات لازم نحنا نعرفا، تنعرف قديش نحنا متجذرين بهالشرق، وحتّى نبقى متجذرين بالشرق. فقانون الإيمان وُضع في نيقيا يللي اليوم بسموا إزنيك بالتركي (لأنّو الأتراك غيّرو أسامي كلّ الضيع يللي كان إسما سرياني وعربي)، سنة ٣٢٥. كانت أغلبية الأساقفة المشاركين بمجمع نيقيا من الشرق: ٤٢ مطران من منطقة بلاد ما بين النهرين ومنطقة سوريا الكبرى اللي هي اليوم سوريا ولبنان، و ١٩ مطران من فلسطين.

وبالشرق برزت قواعد أصول النسك، التنسك والرهبنة نشأت بالشرق، مع القدّيس أنطونيوس بمصر، وباخوميوس، وبالقسطنطينية مع القدّيس باسيليوس. هلق اليوم عم يكتشفو قال كنائس بشبه الجزيرة العربية. مار اسحق السرياني بسمّو إسحق القطري، كان من قطر.

فالمسيحية موجودة بالشرق، متأصلة بالشرق، نحنا منا ضيوف على الشرق. وهيدي قالا البطرك هزيم، الله يرحمو، قال: نحن لسنا ضيوفًا على أحد، نحن أهل الشرق، والجميع ضيوف علينا. حتّى أرتوذكسية السلاف، يعني روسيا وهالدول الأرثوذكسية بأوروبا الشرقية، واليونان كمان، أُصولا مشرقية أنطاكية. لازم نحنا نعرف هالأصول هيدي، ونبقى متجذرين ومتمسكين فيا.

هلّق لَمّا إجا الإسلام تغيّرت الأوضاع بالنسبة للمسيحيين، لأنّو نظرة الإسلام للمسيحيين منّا نظرة تساوي بين المسلم وغير المسلم. ومش بس المسيحيين، كلّ غير المسلمين منن متساوين للمسلم بالفكر والفقه الإسلامي. فمثلاً المفهوم المسيحي، بالنصوص و الضمير الإسلامي، هوي مبهم وغير واضح عبر التاريخ. بالقرآن ما في كلمة مسيحي، في كلمة نصراني، والنصرانية منا مسيحية، هنّي فئة من اليهود اعتنقت بعض مبادئ المسيحية، والمسيحيين ما بيقبلو يتسمّو نصرانيين، لأنّو هني تركو المرحلة اليهودية، ودخلو بالعهد الجديد، ما بقيو بالعهد القديم اليهودي.
والمسيحيي بالقرآن هم أهل كتاب، وكلمة أهل الكتاب بالنسبة للمسلمين بتعني كمان اليهود والصابئة. الصابئة هني فئة، موجودين اليوم ببلاد الرافدين وفلسطين وإيران، بضعة آلاف مش كتار كتير، بآمنو بوحدانية الله ويقدّسون أنبياؤه، بمجدو آدم، بيدّعو بأنّو آدم هوي نبي، وشيت، والنبي يوحنا، بس ما بيسمّو يوحنا، بيسمّو يحيا. الصابئة مش مسيحيين، ولكن الإسلام بيسمّون أهل الكتاب، بما أنن بآمنو بوحدانية الله، متلن متل المسيحيين واليهود. ما بيسمّو المسيحيين، يعني ما في وجود للمسيحية بالفكر والشرع الإسلامي.
كمان المسيحيين بالإسلام أهل ذمّة، وذمّة يعني على ذمّة المسلمين، يعني تحت حماية المسلمين، وإنو المسلمين بيتعهدو بحمايتن مقابل بعض شروط بأدوا وهي أولاً دفع الجزية أو الضريبة على كلّ صبي بالغ، النسوان ما بتدفع ضريبة لأنو ما بيعتبرون أشخاص كاملين، بيعتبرو أنو المرا نصّ شخص ، فمعفيين من الضرايب، هيدا بنظر المسلمين ومش بنظر المسيحيين طبعًا.
والمسيحيين بالدولة العثمانية هم أهل مِلَل، كانو يعتبرو أنّو كلّ كنيسة هي مِلّة، والعثمانيين كانو يسمّو مِلّة مش بس المجموعات الدينيّة، بس كمان المجموعات القوميّة، مثلاً ملّة الأكراد، ملّة الأرمن ، ملّة اليهود وغيرن. فهيدا وضع المسيحيين بالفكر الإسلامي.

المسيحيي أهل ذمّة بالدولة العثمانية

هلّق، شو كانت علاقة الدولة العثمانية بالمسيحيين؟ المجتمعات العربية قبل الإسلام كانت مجتمعات قبليّة، قبائل وعشاير، وإذا بتلاحظو، بعدو الفكر القبلي موجود عند العرب بالشرق، بعد في قبلية لحدّ اليوم. والإسلام، يللي حاول مع النبي محمد أنو يتخطى الانتماء القَبَلي، وطَرَح مفهوم جديد، هو مفهوم الأمّة، وبيقصد فيا أمّة المسلمين، يعني لَمّا الإسلام بقول الأمّة ما بيعني فيا الأمّة القومية، متل الأمّة اللبنانية، هيدا المفهوم مش موجود بالإسلام. المسلم هو أخو المسلم أينما وُجد في العالم، لأنّ كلّ مسلم ينتمي إلى الأمّة الإسلامية. فهيدا هو المفهوم اللي كان سائد بالدولة العثمانية، هالمفهوم الإسلامي. ولّما أصبحت الدولة العثمانية، سنة ١٤٥٣، واحتلّت القسطنطينية، وصارت أكبر قوة عظمى بالشرق وبالغرب، حتّى ١٦٨٣ لَمّا حاصروا ڤيينا مرتين، ومرتين ما سقطت ڤيينا. تاني مرّة كان سنة ١٦٨٣، وبقيت ڤيينا محاصرة كم شهر. لو سقطت ڤيينا كانت كلّ أوروبا الغربية مسلمة اليوم. ولكن بعد ما طال الحصار إجا دفع من منطقة بولونيا، من الملك جان سابيوسكي البولوني على رأس جيش وفكّ الحصار. لهالسبب صارو أهالي ڤيينا، بما أنّو الهلال (كرواسان) هو رمز المسلمين على العلم العثماني التركي، ولَمّا الأتراك فكّوا الحصار، صاروا يعملو غاتو بشكل كرواسان وياكلو، ووقتا نشأت صناعة الكرواسان بڤيينا، فلما مندوق الكرواسان اليوم لازم نستطعم طعم الانتصار.

ولازم ننتبه لشغلة، أنّو ضعف المسيحيين بالشرق مش ناتج بس من الاضطهادات الخارجية، نحنا عنا ضعف

داخلي، وهيدا الضعف الداخلي هو أخطر من الضعف الخارجي، لأنو منّا وفينا، ورح أعطيكن مثل تاريخي: بالسنة يللي احتلّوا فيا الأتراك القسطنطينية سنة ١٤٥٣، بالسنة نفسها، كان لوثر عم يعلّق على أبواب كنيسة ويتنبرغ بيانو الاعتراضي ضد البابا وسياسة الكنيسة الكاثوليكية. فبالتالي هونيك في تجمع وجهاد في سبيل الدين، وهون في انقسامات دينية. هيدي لازم ننتبهلا. مش دايمًا نفكّر أنو الأخطار خارجية. صحيح في أخطار خارجية، بس كمان في أخطار داخلية وأخطر، ولازم ننتبهلا منيح.

بالدولة العثمانية ما كانوا المسيحيين يتمتعوا بالمساواة مع رعايا الدولة. عاشو بنظام الملل، وكلّ مِلّة كان عندا بطرك رئيسا، والبطرك كان مسؤول عن شؤون الدين فقط، ولكن كان عندو بعض السلطات القضائية.بما يخصّ الأحوال الشخصية، زواج وطلاق وإرث. وكان أحيانًا لمّا يفرضو ضريبة على ملّة معيّنة، البطرك يتولى توزيع مين بدو يدفعا، وكيف بدا تندفع، حتّى يكون عند العثمانيين ضمانة أنو في مرجعية، بحال ما ندفعت الضرايب. ولمّا احتلوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣، السلطان العثماني محمد الفاتح عطى البطريرك الأرثوذكسي جناديوس سيكولاريوس سلطة رئيس أوّل على كافة الأرثوذكس بالأمبراطورية، يعني بطرك القسطنطينية بيحكي باسم كلّ الأرثوذكس، ومش بس بيحكي باسم أرثوذكس تركيا، بيحكي باسم الأرثوذكس بالعالم. مين بدو يوصل للسلطات العثمانية بدو يمرق عبر البطريرك. ولكن، البطريرك بالقسطنطينية منّو حرّ، لأنو السلاطين العثمانيين حطّو قانون بيقول أنو الكنيسة الأرثوذكسية ما بتنتخب بطرك إلاّ ضمن لايحة من عشر أشخاص، بيتقدمو للسلطان، للسلطات التركية، والسلطان إلو حقّ يحذف منا يللي بدو يا. وبعدو هالقانون موجود لحدّ اليوم بتركيا. ولازم يكون البطرك من جنسية تركية، والأتراك الأرثوذكس بتركيا عم يقلّو، يمكن بعد كم سنة ما بيلاقو خوري، من وين بدن يلاقو بطرك! فبالتالي، إذا نحنا عايشين بلبنان لحدّ اليوم بحرية، نوعًا ما نسبية، وعم تقلّ نسبيتا مع الوقت، ولكن لازم نعرف قيمة هالحريّة ونبقى محافظين عليا.

هل كانو المسيحيين يتمتعوا بضمانات مقابل العهد؟ بيعتبرو الإسلام أنو في نوع من gentleman agreement اتفاق أخلاقي مع الجماعات المسيحية على نمط معاهدة نجران، وهي أوّل معاهدة عملا النبي مع أهل نجران المسيحيين سنة ٦٣١. هالمعاهدة إلا أهميّة لأنو صارت نوع من موديل، كلّ ما احتلّوا منطقة مسيحية جديدة يطبقو الشروط اللي تضمنتا معاهدة نجران. شو بتقول هالمعاهدة: «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمّة محمد»، إنتو كونكن أهل كتاب قريبين من الله، لكن إنتو بذمّة النبي محمد، ومن بعد النبي بذمّة الخلفاء والمسلمين، ومنكن أحرار ومتساوين لإلنا. «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمّة محمد رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملّتهم ولا يُغيّر أسقف من أساقفتهم ولا راهب من رهبانيتهم».
لمّا نعملت معاهدة نجران ما كانو المسيحيين أقليّة بشبه الجزيرة العربية، كان في قبايل كبيري كلاّ مسيحيي: بنو تغلب مسيحيين، بنو غسان مسيحيين، بنو تنوخ مسيحيين، بنو طَي مسيحيين، منقول حاتم طَي، يُضرب المثل بكرمو، هو مسيحي، كان في أساقفة بشبه الجزيرة العربية، أساقفة بالخليج، ومع هيدا ما كان في مساواة.

الإسلام هو معيار تصنيف أفراد المجتمع وليس الانتماء المشترك إلى أرض وشعب. صاغ الفقهاء المسلمين بعض الشروط على المسيحيين، مِنّا أنّو ممنوع يلبسو بعض ألوان، في بعض ألوان تياب خاصّة بالمسلمين، وما لازم يشارك فيا لا المسيحيين ولا اليهود؛ ولازم يدفعو الجزية، ويقدمو مساعدات لجيوش المسلمين بحال دخلو بالحرب، مفروض عالمسيحيين يدفعو مساعدة، يقدمو عَلَف، قمح، مال وغيرو؛ وشهادتن مش مقبولي

بالمحاكم الشرعية الإسلامية، شهادة المسيحي مَنّا مقبولي. لهالسبب لمن بلّشو بكسروان يشتروا أملاك الشيعة وبعض السنّة حتّى يمضو وثيقة البيع بالمحاكم الشرعية، ويكون البيع شرعي، ت يضلّ في شهود مسلمين. مثلاً سنة ١٥٨٠ أصدر السلطان مراد التالت فرمان منع في أهل الذمة من لبس العمائم والأحذية السودا، لأنو الأحذية السودا خاصّة بالمسلمين، فين يلبسو بنّي أحمر أخضر يللي بدن يا. وبقول يوسف ابراهيم يزبك: «لم يكن للمسيحيين أن يلبسوا لبس المسلمين، ولا أن يركبوا الخيل، ولا حمل السلاح، وإذا شاءت إحدى الملل ترميم كنيسة كان عليها الحصول على فرمان سلطاني». حتّى ترميم الكنايس كان ممنوع، كان بدّن إذن. لهالسبب، بجبل لبنان، يللي كان يتمتع بحريّة نوعًا ما نسبيّة، كان ممكن بناء كنايس وأديار بلا إذن. منشين هيك معظم الرهبانيات نشأت بلبنان، إن كانت مارونية أو كاتوليكية، مؤسسينا إجو من حلب، لهالسبب كانوا يسمّون الرهبانية الحلبية، لأنو بحلب وبالولايات السورية ممنوع يبنوا أديار، فإجو ع جبل لبنان حتّى يتمتعوا بحريّة العقيدة والمعتقد ويبنوا أديار ويبنوا قبب ويدقوا الجراس ، الجراس كمان ممنوع بالإسلام. فهيدي حقايق لازم نتوقف عندا شوي وناخد منا عبر.

بسجلات المحاكم الشرعيّة أسماء المسيحيين على طول بتسبقا عبارة «الذمّي فلان» أو «النصراني فلان» تيبيّن أنّو غير مسلم، وإذا كان فلان إبن فلان، بقولو فلان ولِد فلان إذا كان مسيحي، ما بيقولولو إبن فلان، لأنّو إبن خاصّ بالمسلمين. وأنا شفت بوثيقة عم يعلنو بمحضر شرعي وفاة أحد المسيحيين، محطوط «وقد فطس الذمّي فلان» وما بيقولو مات.
هيدا وضع المسيحيين بالسلطنة العثمانية.

ولكن كنت عم أقول أنو في عنّا مشاكل داخلية. من هالمشاكل قصّة النفوذ بين القسطنطينية وروما، بين الأرثوذكس والكاثوليك. لّما نشأت البروتستانتية وانقسموا المسيحيين على بعضن، بالقرن الخامس عشر، وبلّشت الحروب الدينية بأوروبا، ومات مئات الآلاف بالحروب بين البروتستانت والكاثوليك، أنهر صار لونا أحمر قد ما يكبّو فيا ضحايا، حاولت روما تعوّض عن هالناس يللي تركو الكثلكة وصارو بروتستانت. قالت منروح ع مسيحية الشرق يللي انشقّو، بلكي يرجعوا ع روما، وبعتوا المرسلين اللاتين. أنشأوا بروما، سنة ١٥٨٢، مدرسة لتخريج الإكليرُس الكاثوليكي، وسنة ١٥٨٤ مدرسة تاني، المدرسة المارونية، لتخريج الإكليرُس الماروني. وبالتالي بلّش تيّار الليتنة، يعني أنّو هالكنايس الشرقية المتّحدة مع روما، خوفًا من أنّو تبتعد عن روما، خلّينا نقرّبا نحنا من الطقس اللاتيني: باللباس، كان لباس الكهنة الموارنة شرقي، صار قريب من اللباس اللاتيني؛ بطباعة الكتب الطقسية، ما كان عندن كتب، صارت روما تطبعلن كتب، مطبعة قزحيا سنة ١٦١٠ طبعت كتاب واحد وتوقفت اختفت وما حدا بيعرف كيف اختفت، البعض بيقول أنو روما خافت يصيروا الموارنة يطبعو كتب ع ذوقن اختفت هالمطبعة لأنو يللي جابوا هنّي تلاميذ المدرسة المارونية. وهيك صارت روما هي تطبع كتب، مش بس للكاثوليك، حتّى للأرثوذكس يللي كان نوعًا ما عندن انفتاح.
صاروا بطاركة أنطاكيا الأرثوذكس يطلبو من روما تطبعلن الكتب الليتورجية، بينما الكنيسة الأرثوذكسية حاولت أنّو تحوّل الطقس إلى اليوناني. الأرثوذكس في فترة كانو يصلّو بالسرياني، صارت لغتن الطقسية يونانية. هونيك في خطر الليتنة، وهون في الخطر اليوناني، في انقسامات داخلية عند المسيحيين. وبقيو يفرضو بطاركة يونان ع بطركية الأرثوذكس الأنطاكية لحدّ سنة ١٨٩٩ لَمّا انتُخب أوّل بطرك عربي أرثوذكسي على أنطاكية. قبل ١٨٩٩ كلّ البطاركة الأرثوذكس يللي يجو ع كرسي أنطاكية كانو يونان مش عرب، وأوّل بطرك أنطاكي عربي هو مطران اللادقية ملاتيوس الدوماني، انتخبو بطريرك، وما وافقت علَي السلطات العثمانية بالأوّل، ما بدن عرب، بدن يونان الخاضعين لبطرك القسطنطينية يللي هو خاضع لإلن.

لكن لَمّا اليونان عملو ثورة واستقلّو عن الدولة العثمانية سنة ١٨٢٩، ساعتا اعترفت السلطنة العثمانية بالبطرك الأرثوذكسي العربي الدوماني، نكاية فين، اعترفت في سنة ١٩٠٠.
هلّق كيف تحسّن وضع المسيحيين نوعًا ما؟ تحسّن لّما بلّشت تضعف الدولة العثمانية، وبلّشت السلطات الأوروبية تتدخل بشؤون الدولة، وكلّ دولة أوروبية قويّة تحمي فئة من المسيحيين بالشرق، وتطلب مساواتن مع المسلمين. انجبرو ساعتا السلاطين، بأواسط القرن التاسع عشر، يصدرو فرمانات بتعطي حقوق أزود للمسيحيين، وهالشي صار على مرحلتين. أوّل مرحلة سنة ١٨٣٩، مع خط شريف غول خان، غول بالتركي يعني ورد، وغول خان يعني قصر الورد، قصر السلطان، لأنو صدر الفرمان من قصر السلطان. هالفرمان بيطلب من المسيحيين بمقتضى الحكم الشرعي، الناموس والمال، بس ما بيساوون مع المسلمين. فرمان المساواة بين المسيحيين والمسلمين صدر سنة ١٨٥٦، بعهد السلطان عبد المجيد، سمّو خط شريف همايون، همايون يعني سلطان، عطا حقوق للمسيحيين، وصاروا متساوين مع المسلمين، لكن بِقيو مِلَل، والسلطان يتعاطى معن كملّة مش كمجموعة مدنية متل المسلمين، وبقيت الدولة تشرف على البطاركة. حتّى عنّا، البطرك الحويك، جبرو بحرب الأربعتش يطلب الفرمان السلطاني ت يطبق صلاحياتو، وإلاّ كانو نفيو أخدو، يعني عطيو مساواة للمسيحيين وبقيو يتعاطو معن كملل تحت إشراف السلطنة العثمانية. ولّما عطيون المساواة، صارو ملزمين بالخدمة العسكرية، وبما أنّو ما عندن ثقة فين تيعطون سلاح، قالولن فيكن تستعفو من الخدمة العسكريّة مقابل بدل عسكري ٥٠ ليرة دهب ، ومش كلّن معن ٥٠ ليرة دهب، فبالتالي قسم استعفى وقسم ما استعفى.
هيدا وضع المسيحيين من أهل ذمة إلى المساواة بالدولة العثمانية.

سياسة الإبادة

هلّق منحكي عن سياسة الإبادة. هي سياسة قتل جماعي منظمة ضدّ جماعة من الناس على أساس ديني أو عرقي أو قومي أو سياسي، صنفتا الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨ إنّا جريمة دولية وهي من الجرائم ضدّ الإنسانية. بدأت بوادر إبادة المسيحيين بالسلطنة العثمانية منذ النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، يعني مش بس بحرب الأربعتش، قبل حرب الأربعتش بمية سنة، بلّشت تصير الإبادة.

مثلاً، بمنطقة عفرين الكردية، شمال سوريا، عالحدود مع تركيا، سنة ١٨٣٩، نشأت صراعات على السلطة بين أميرين كرديين. الأكراد كتار بالمنطقة، البطرك الأشوري وقف إلى جانب أحد الأميرَين، يللي خسر المعركة. راح الأمير المنتصر، حتّى ينتقم منّو، هجم على المناطق المسيحية، وانتقم من الأشوريين يللي داعمين البطرك، بعد ما وافق والي الموصل التركي عالهجوم، سنة ١٨٤٣. دمّر الضيع المسيحية، وقتل عشرة آلاف أشوري، وسِبي الشباب والبنات، وباعون بأسواق النخاسة، يعني يعرضن بالسوق، ويجي واحد يفحص الشب أو البنت ويشتري، البنت تصير جارية، والشب يصير عبد. تدخلو الإنكليز وقدرو حرّرو مية وخمسين شخص، بيناتن إختو للبطرك الأشوري، لأنو البطرك وقف مع الإنكليز.

سنة ١٨٩٤ - ١٨٩٦ صارت مدابح للأرمن والأشوريين والسريان والكلدان بمنطقة الجزيرة وديار بكر. لأنّو بهالمرحلة هيدي، لّما شافو الأرمن أنو اليونان أخدو استقلالن، صارو هنّي بدّن يستقلّو، وبلّشو يقولو أنّو السلطان عبد الحميد وعدنا يعطينا صلاحيات أكتر ومساواة أكتر وما عم تنفذولنا ياهن. عملو نوع من تمرّد ثورة. بعتولن جيش أبادو كلّ المتمردين ،حوالي الأربعة آلاف، وكَفّو على السريان والكلدان والأشوريين،

يعني كلّ واحد مسيحي ما عِفيو. صارت المجازر بطريقة منظمة، بيت وبيت، يخربو ويحرقو، قتلو الرجال، وخطفو الفتيات، وانتهت المذابح بعد ٣ إيام، ودمّرو الكنايس طبعًا.

كمان بحرب الأربعتش صار في مدابح كبيري للسريان، هني بسموا سَيفو، لأنو قتلون بالسيف، ولّما بقول السريان سَيفو، بيقصدو فيا المذابح اللي قامو فيا العثمانيين ضدن. بحرب الأربعتش، لّما بلّشو الأتراك يخسرو الحرب على جبهة الكوكاز بالأوّل، اتهمو الأرمن والمسيحيين أنّو هنّي عم يساعدو أعدائن الفرنسيين والإنكليز بالحرب، لأنو ألمانيا وبروسيا وقفو مع الأتراك، وإنكلترا وفرنسا ضد الأتراك، فأعلن السلطان محمد الخامس الجهاد على أعداء الإسلام، ب ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٤، ساعتا أعلن شيخ الإسلام فتوى الجهاد بعد يومين، يعني أنو القتال بهالحرب هو من أجل الإسلام مش بس من أجل تركيا، وكلّ واحد غير مسلم هو عدو، يعني صار المسيحي عدو، وصارو يقولو الأتراك: أرمن كافر وعرب خاين. هودي كفار، وهودي خونة ولو كانو عرب ومشيو معنا . وشجعو الأكراد يفوتو معن بالقتل. أسّس السلطان عبد الحميد فرقة خاصّة من الأكراد، إسما الحميدية، وعطاهن إمتيازات، وشجعن وفلتن على المسيحيين بمنطقة الجزيرة وديار بكر.

سنة ١٩١٥ بدأت عمليات الترحيل والمجازر الجماعيّة ضد جميع المسيحيين بدون استثناء، واستمرّت كلّ الحرب، وما بعد الحرب حتّى سنة ١٩٢٠. أكتر شعب أكلا من الإبادة هو الأرمن كعدد ، مليون ونصف أرمني أُبيدو بالمجازر من أواخر القرن التاسع عشر لحرب الأربعتش. لّما عملو مساواة صار في كتير من الأرمن بالجيش التركي، طلّعو قرار أنّو كلّ أرمني بالجيش التركي يُبعد إلى داخل تركيا، ما بيخلّون بالمدن، بياخدون لمطارح بعيدة عن الجبهات، بالترانات ووسائل النقل، يقشتون سلاحاتن ويقتلون، كلّن مجندين شباب.

ثمّ تمّ توقيف النخب الأرمنيّة السياسية والفكرية والاقتصادية والدينية، قادة الفكر والاقتصاد، قتلون، اعتقلو رجال وأعدمون، بين أيار وحزيران ١٩١٥. وبلّشت مسيرات الترحيل، أخدون بالبرّ يمشو مئات الكيلومترات بمناطق صحراوية، نصن مات عالطريق، واللي وصل منن عالمخيمات كمان أبادون.

أما بلبنان، لّما اندلعت الحرب وبلّش الجيش التركي يتكبّد الخسائر، بلّشو ينتقمو من المسيحيين. بكانون التاني سنة ١٩١٥ عنونت جريدة New York Times أنّو المسيحيين بالشرق هم في خطر كبير. القادة التلاتي تبع تركيا بحرب الأربعش هني طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا اللي بعتولنا يا، قايد الجيش التركي الرابع، بعتولنا يا حاكم عسكري على منطقة الشرق. طلعت باشا صرّح بوضوح، بكانون الثاني سنة ١٩١٥: لا مكان للمسيحيين في تركيا.

وعدّة مصادر تاريخية بتذكر أنو أنور باشا قال، بربيع ١٩١٦: علينا نطهّر السلطنة العثمانية من الأرمن ومن اللبنانيين، وهون بيقصد اللبنانيين المسيحيين، لقد قضينا على الأرمن بالسيف وسنقضي على اللبنانيين بالمجاعة. من هون إجتنا المجاعة، لمن حاصرو الأتراك الطرق البريّة المفتوحة على سهول القمح بسوريا، وإجا الجراد، وإجت الأمراض، وإجا الحصار الأوروبي للبحر. يعني نحنا ضررنا إجا مش بس من تركيا، إجا كمان من الإنكليز والفرنساويي يللي سكّرو طريق البحر، خافو أنو إذا إجت مساعدات وأغذية، بصادرا الجيش التركي لجيشو. هنّي حاصرونا من البحر، والأتراك حاصرونا من البرّ. فمات تلت سكان الجبل جوعًا ومرضًا، واحد على تلاتي من سكان جبل لبنان.

أوّل الشهدا ومن يللي تمّ نفين، مطران بيروت بطرس شبلي، كان من ألمع المطارنة يللي عرفو تاريخ الموارنة. عيّنو مطران بيروت كان عمرو ٣٧ سنة، خريج Saint Sulpice بفرنسا، وكانو لّما بدن يعملو احتفال يطلبو منّو يحكي باسمن، بالفرنساوي. اتهمو الأتراك أنّو عم يراسل الفرنساويي ويطلب منن مساعدات، نفيو على تركيا، ومات بتركيا عن عمر ٤٧ سنة. دفنو بتركيا، ولّما خلصت الحرب جابو جتتو ع لبنان.

وهونيك مين استضافو؟ أحد آل لبكي، بيقرب الدكتور بطرس لبكي.

الخاتمة

ختامًا، الأوضاع المأساوية يللي عم نعيشا اليوم بتدفعنا لرؤية بشرية بالأوّل، هَمّا الأساسي الوجود واستمرار هالوجود. ولكن نحنا مؤمنين ومنا بحاجة بسّ لرؤية بشرية، نحنا بحاجة لرؤية إيمانية بتفتح أبواب الأمل والرجاء. الرؤية الإيمانية بتحرّر ذاتنا النفسية من رواسب الماضي، وبتخلينا نفكر بشقّ طريق مستقبلي واعد.

هالمناسبة اليوم بكنيسة مار يوحنا، وبذكرى الشهيد ليونار عويس ملكي، مناسبة خاصّة بتدعينا للتأمّل. أوّل شي استشهد ليونار ملكي لأنّو كان شاهد للمسيح، وهل نحن اليوم نشهد للمسيح؟ كرجال سياسة، كرجال دين، كعلمانيين، هل نشهد للمسيح في حياتنا، أوّل شي بعلاقاتنا مع بعضنا، قبل بعلاقاتنا مع الإسلام والآخرين. هل نحن فعلاً نشهد؟ بهالمناسبة لازم نحنا شوي نتوقف عندا.

بيقول البابا يوحنا بولس الثاني أنّو نحنا عنّا رسالة بهالشرق. وبقول الأب ميشال حايك: «نحنا كمسيحيين ما لازم يكون همّنا بس وجودنا واستمراريتنا، لو أردنا أن نكون فعلاً أمناء لرسالتنا، لما نعمنا بطمأنينة ما دام كلّ الناس حولنا معذبين، ولما أكملنا طريقنا مرتاحي البال بينما الحقّ يئن طريحًا جريحًا كالسامري». والحقّ بلبنان وينو اليوم؟ الحقوق بالشرق وينا اليوم؟ وين الإنسان اليوم؟

نحنا عنّا رسالة، رسالة إنسانية، مش بس نفكر بوجودنا وبأكلنا وبشربنا. وبكمل ميشال حايك: «والعدالة كالمسيح تصارع الباطل على صليب الحقّ». أين العدالة اليوم؟ أين القضاء اليوم؟

متل ما قلنا بالمقدمة، نحن أصيلون في هذا الشرق، ولسنا ضيوفًا على أحد. تأصلنا يعني أننا لا نحلم بهناء والشرق تعيس، ولا بطمأنينة والحقّ سليب، بل نقاسي فيه ومعه سرّ تجسّد المسيح وآلامه. نحنا أبناء رجاء وقيامة، ومنّا أبناء الموت، نحنا أبناء الشهادة. لبنان المصلوب سينتصر على الموت، وسينهض من كبوته رغم أنف المستحيل، وطني لن يستقيل. شكرًا.